مبشرات من التاريخ

ولا تقف المبشرات بانتصار الإسلام عند النصوص القرآنية والحديثية المتوافرة ، والتى تملأ القلب يقينًا بأن الغد لهذا الدين العظيم. بل إننا نجد فى وقائع التاريخ وأحداث الماضى : ما يعمر قلوبنا بالثقة والأمل فى مستقبله ، برغم ما يقف فى سبيله اليوم من عقبات ، وما يعوق صحوته من عوائق هائلة ، بعضها من صنع أعدائه فى الخارج وأخرى من صنع خصومه فى الداخل ، وأعجب شىء أن يكون هؤلاء الخصوم أو أكثرهم ممن يحملون اسم الإسلام ، ولكنهم - فى الحقيقة - قد انضموا إلى صفوف محاربيه ، فلا يريدون للشريعة أن تحكم ، ولا لقيمه أن تسود ، ولا لكلمته أن تكون هى العليا .

* *

● حقيقتان كبيرتان من التاريخ :

وحسبنا من مبشرات التاريخ عامة ، وتاريخنا خاصة -الذى يبدأ بسيرة النبى ﷺ - : حقيقتان كبيرتان فى غاية الأهمية فى موضوعنا الذى نبحثه .

* *

● نزول النصر أحوج ما نكون إليه :

الحقيقة الأولى : أن النصر لا يأتى من عند الله إلا عندما يكون الناس أحوج شىء إليه ، وعندما يبرأ الناس من حولهم وقوتهم ، ويلوذون بحول الله تعالى وقوته ، وعندما تغلق الأبواب فى وجوههم إلا بابه ، وتنقطع الأسباب دونهم إلا أسبابه ، هناك يدعون دعاء المضطرين ، ويلجئون إليه لجوء المفتقرين . وهو سبحانه يجيب المضطر إذا دعاه ، ولا يخيب من افتقر إليه ورجاه .

رأينا ذلك فى هجرة النبى ﷺ ، وقد لجأ إلى الغار ، فاختفى فيه هو وصاحبه أبو بكر ، وقد بحث المشركون عنهما حتى وصلوا إلى باب الغار ، وقال أبو بكر مشفقًا على صاحبه وعلى دعوته : يا رسول الله ؛ لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ! فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر ؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟ .

وقد قص علينا القرآن كيف نصر الله رسوله فى ذلك اليوم ، وبأى جند نصره . يقول تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

---

(١) التوبة : ٤٠

ورأينا ذلك النصر فى يوم بدر ، وقد كان المسلمون أقل من المشركين عددًا (كانوا أقل من ثلثهم) وأضعف عُدَّة (كان مع المسلمين فرسان ، ومع المشركين مائة فرس) وأضعف استعدادًا وتهيؤا للحرب من الناحية النفسية ، فقد خرجوا من بيوتهم للعير لا للنفير ، فلم يكن القتال فى نيتهم ، وفى هذا يقول القرآن : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِن فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِى الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ (١) .

ومع هذا كان النصر للمؤمنين ، حين استغاثوا بالله فأغاثهم : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) ، وكان الرسول ﷺ يدعو ربه فى ذلك اليوم ، ويلح فى الدعاء ، يقول : « اللهم أنجز لى ما دعوت ، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض بعد اليوم » !! وما زال يدعو حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وأبو بكر يقول له : والله يا رسول الله لينصرنك الله ، وليبيضن وجهك !

---

(١) الأنفال : ٥ ، ٦ (٢) الأنفال : ٩ ، ١٠

لقد كانت يد الله الواحد القهار هى التى تدير المعركة من فوق سبع سموات ، هو الذى رتبها ، وهيأ مكانها وزمانها : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّم لاخْتَلَفْتُمْ فِى الْمِيعَاد وَلَكِن لِّيَقْضِىَ اللهُ أمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ، لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَىَّ عَن بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

كانت يد القدر الأعلى وراء يد النبى ﷺ حين رمى بحفنة من الرمل فى وجوه القوم ، وكانت وراء أيدى المؤمنين ، وهى تقتل المشركين كما قال تعالى :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِـنَّ اللهَ رَمَى ﴾ (٢) .

ومن هنا امتن الله على رسوله وعلى المؤمنين بنصرهم فى بدر ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُم أذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

ورأينا ذلك النصر فى يوم الخندق ، وقد اشتد الكرب على المسلمين ، حين غزاهم المشركون فى عقر دارهم ، وحاصروهم حصاراً شديداً ، وحفروا الخندق ليحميهم من هجومهم ، وغدر بهم اليهود وانضموا إلى المهاجمين . وقد وصف القرآن حال

---

(١) الأنفال : ٤٢ (٢) الأنفال : ١٧ (٣) آل عمران : ١٢٣

المسلمين المادية والنفسية فى هذا الوقت العصيب فقال : ﴿ إِذْ جَاؤُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾ (١) .

وقد كشف المنافقون عن أقنعتهم ، وقال منهم ما قال : مما سجله عليهم القرآن :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِنهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ، إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ (٢) .

فى هذه المحنة الخانقة ، وفى تلك الظروف الحالكة ، جاء نصر الله تعالى ، كما قال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٣) .

وقال أيضًا : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (٤) .

---

(١) الأحزاب : ١٠ ، ١١
(٢) الأحزاب : ١٢ ، ١٣
(٣) الأحزاب : ٩
(٤) الأحزاب : ٢٥

وفى غزوة حُنَيْن ، كان المسلمون جيشًا كبيرًا ، وقد فتحوا مكة ، وانتصروا على قريش فغرتهم كثرتهم ، واعتزوا بعددهم ، فلقّنهم الله درسًا بليغًا حتى يفيقوا ، ويعلموا أن النصر من عند الله ، ومن لم ينصره الله فهو مغلوب ، ومن نصره الله فلن يغلب أبدًا .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وهكذا نجد أن نصر الله تعالى يتنزل على عباده المؤمنين ، حين تضيق بهم الحيل ، وتخذلهم أسباب الأرض ، فيمدون أكفهم إلى السماء .

وهذا أمر ثابت فى تاريخ الرسالات كلها ، وفى تاريخ الرسل جميعًا ، كما بين ذلك القرآن فى قوله فى أواخر سورة يوسف : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَاءُ ، وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢) .

* *

(١) التوبة : ٢٥ - ٢٧ (٢) يوسف : ١١٠

● **قوة الأمة عند الشدائد :**

والحقيقة الثانية التى عرفناها من تاريخنا : هو المخزون النفسى والروحى الكبير ، الذى تدخره الأُمَّة ، ولا يبرز إلا فى المحن والخطوب .

إن التاريخ يحدثنا أن فى الإسلام (قوة ذاتية) مخبوءة ، لا تبرز إلا عند حلول الشدائد بساحته ، وإحاطة المحن بأمته . فهناك نراه أصلب ما يكون عودًا ، وأعظم ما يكون صمودًا ، وأشد ما يكون قوة ، وأقدر ما يكون على تفجير الطاقات المكنونة لأمته ، وإبراز ما خبئ من قوته وقدرته ، فإذا هو يقاوم فيصمد ، بل يغالب فيغلب ، وإذا الضعف الظاهر الذى أطمع الناس قد استحال إلى قوة ، بل إلى قوة قاهرة منتصرة .

رأينا ذلك فى فجر تاريخ الإسلام : فى يوم بدر ، حيث انتصرت القلة على الكثرة ، والضعف المادى على القوة ، وامتن الله على المؤمنين بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى الأَرْضِ تَخافُونَ أَن

---

(١) آل عمران : ١٢٣

يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

* *

● **فى حروب الردة :**

ورأينا ذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وقد ارتدت قبائل العرب - فيما عدا المدينة ومكة والطائف - وظهر أدعياء النبوة الكذبة من كهنة العرب ، وتبعهم قبائلهم عصبية لهم ، على حد قولهم : كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ! فكان مسيلمة وسجاح والأسود العنسى وطليحة الأسدى ، وغيرهم ، وانضم إليهم مانعو الزكاة ، الذين أقروا بالصلاة ولم يقروا بالزكاة ، وكانت فتنة عارمة ، ومحنة قاسية ، جعلت بعض الصحابة يقول لأبى بكر : يا خليفة رسول الله ؛ لا طاقة لك بحرب العرب جميعًا ، الزم بيتك ، وأغلق بابك ، واعبد ربك ، حتى يأتيك اليقين !!

ولكن أبا بكر الرجل الرقيق البكاء أبى أن يستسلم ، وثبت كالطود ، وزأر كالليث ، وجهز أحد عشر جيشًا لحرب المرتدين ومانعى الزكاة ، ولما ناقشه عمر فى مقاتلة ما نعى الزكاة . وقد قال النبى ﷺ : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : (لا إله إلا الله)

---

(١) الأنفال : ٢٦

فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم **إلا بحقها** وحسابهم على الله » . وهنا قال له أبو بكر فى يقين وقوة : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عناقًا (عنزة صغيرة) - وفى رواية : عقالاً - كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه .

وقامت معارك بين الصحابة - على قلتهم - وبين المرتدين ومانعى الزكاة على كثرتهم - انتهت بانتصار المؤمنين على المارقين الذين رجعوا إلى حظيرة الإسلام تائبين مستغفرين ، مكفرين عن ردتهم بالانضمام إلى صفوف المجاهدين فى قتال فارس والروم . وكانوا من أعظم الناس بلاء فيه ، يعوضون عما بدر منهم فى حق الإسلام .

وعادت جزيرة العرب حصنًا ومعقلاً للإسلام ، على امتداد القرون .

* *

● فى الحروب الصليبية :

وظهرت القوة الكامنة فى الإسلام مرة أخرى ، حين زحف عليه الغرب المسيحى بقضه وقضيضه ، وثالوثه وصليبه ، فى تسع حملات شهيرة عرفت باسم (الحملات الصليبية) .

جاء الغرب الصليبى الزاحف يحمل فى صدره حقدًا أسود على الإسلام وأهله ، وطمعًا فى خيرات بلاده ، وأملاً فى تحطيم قوته وميراث ملكه ، ساعده على ذلك غفلة المسلمين ، وغرق حكامهم فى الشهوات . وتفرقهم من أجل الدنيا ، وحرصهم على الإمارة ، واستعداد هؤلاء الأمراء التافهين أن يبيع أحدهم أخاه ويشترى الدخيل الغريب ، وأن يبيع أمته ويشترى إمارته .

فلا غرو أن ينتصر الصليبيون فى أول الأمر ، وأن يقيموا لهم ممالك وإمارات فى ديار الإسلام ، بالتعاون مع الخونة من الأمراء ، وأن يدخلوا بيت المقدس ، بعد مذبحة قتل فيها عشرات الألوف ، وجرت الدماء للركب .

وبقى الصليبيون فى الشام نحو مائتى عام ، وبقى بيت المقدس فى أيديهم تسعين سنة كاملة .

ثم هيأ الله للإسلام رجالاً صمموا على أن يقاوموا العدوان ، وأن يستردوا الأرض المغتصبة ، ويستعيدوا الحق السليب ، فكان عماد الدين زنكى ، وابنه البطل نور الدين محمود الشهيد ، الذى كان يشبه بالخلفاء الراشدين فى سيرته وشجاعته والتزامه وعدله ، وتلميذه القائد المظفر صلاح الدين الأيوبى ، الذى كتب الله له النصر على الصليبيين فى معركة (حطين) الشهيرة ، وفى معركة فتح بيت المقدس ، وإعادته إلى أمة الإسلام ، وكانت بعد ذلك

معارك فى مصر ، انتهت بأسر لويس التاسع فى (دار ابن لقمان) بالمنصورة .

وكل هذا دليل على أن الأمة الإسلامية قد تنام ، وقد تمرض ، ولكنها لا تموت ، ما دام يجرى فى عروق أبنائها دم العقيدة ، وما دام فيها من يقودها بـ (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) .

* *

● فى حروب التتار :

وكما تعرض الإسلام للغزو من الغرب على أيدى الصليبيين الأوربيين النصارى ، تعرض للغزو من الشرق على أيدى التتار الوثنيين . الذين هجموا على بلاد الإسلام كالريح العقيم ، ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

وقد ظهروا والمسلمون ضعفاء متفرقون ، ليس لهم قيادة قوية تجمع صفوفهم ، ولا نهضة إيمانية توقظ شعوبهم ، والتتار كانوا فى ذلك الزمن قوة عسكرية عاتية ، لها قيادة مهيبة مطاعة ، لا يقف فى وجوههم أولئك الملوك الممزقون ، والأمراء المفرقون ، والولاة المترفون ، فسقطت البلاد فى أيديهم بلدًا بلدًا ، وفر الأمراء من أمامهم - أو خضعوا لهم - أميرًا أميرًا ، والنصر يغرى بالنصر ، والظفر يدفع إلى الظفر ، حتى كان المثل السائر فى ذلك الزمان :

إذا قيل لك إن التتار قد انهزموا فلا تصدق ! إنها أسطورة (القوة التى لا تقهر) تتكرر ما بين عصر وآخر .

وأخيرًا زحفوا على عاصمة الخلافة العباسية بغداد دار السلام ، وأرقى بلاد الإسلام ، فسقطت تحت ضرباتهم وبمعونة من خان ممن ينتسبون إلى الإسلام ، وسالت الدماء أنهارًا ، وأسود نهر دجلة من كثرة ما ألقى فيه من كتب الحضارة ، التى سال مدادها ، حتى أحالت ماء النهر أسود حالكًا .

ولم تكد تمضى سنوات ، حتى تحققت معجزة الإسلام مرتين : انتصر الإسلام على التتار عسكريًا ، فى معركة من معارك التاريخ الحاسمة ، وهى معركة (عين جالوت) بقيادة القائد المملوكى الصالح سيف الدين قطز ، الذى حقق الله على يده النصر ، ومعه جنود مصر ، فى يوم من أيام الله فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، أى بعد سقوط بغداد بسنتين فقط .

وانتصر الإسلام مرة أخرى معنويًا ، فإذا هؤلاء الجبابرة الذين غزوا الإسلام يغزوهم الإسلام ، وإذا سيف الغازى المصلت يسقط أمام تأثير العقيدة الإسلامية العزلاء ، وإذا الغالبون يدخلون أخيرًا فى دين المغلوبين !! على خلاف ما هو معروف ومألوف ، وهو ما قرره ابن خلدون أن المغلوب هو المولع دائمًا بتقليد الغالب المنصور . .

* *

● حروب التحرير فى العصر الحديث:

وفى العصر الحديث ، رأينا الجهاد البطولى ، ضد الغزاة المستعمرين ، فى سائر ديار الإسلام : جهاد الأمير عبد القادر الجزائرى ضد الفرنسيين فى الجزائر ، والأمير عبد الكريم الخطابى ضد الأسبان فى المغرب ، والبطل عمر المختار ضد الطليان فى ليبيا ، والشيخ عز الدين القسام ضد الإنجليز واليهود فى فلسطين ، مرورًا بثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى ، ومعارك فلسطين ضد الصهاينة ، والقناة ضد الإنجليز .

كما اعترف المؤرخون الغربيون أنفسهم - أمثال برنارد لويس فى كتابه (الغرب والشرق الأوسط) - أن الحركات الدينية كانت هى قائدة معارك التحرير فى سائر البلاد الإسلامية ضد الاستعمار ، حتى حركة كمال أتاتورك نفسها ، ولكن المؤسف أن الإسلاميين يزرعون ، والعلمانيين هم الذين يحصدون ، إنهم لصوص مدربون على سرقة ثمار الجهاد وثورات المجاهدين !

* * *